

الجغرافيا التاريخية

أولاً- تعريفها :

ليست الجغرافيا التاريخية أحد فروع الجغرافيا الطبيعية أو الجغرافيا البشرية، وإنما هي جغرافية الماضي بجوانبه الطبيعية والبشرية بمعنى إنها لا تقتصر في دراستها على الظروف الطبيعية للماضي، وإنما تهتم بدراسة النشاط البشري كذلك. ولا يمنع ذلك من أن تكون هناك دراسات عن الجغرافيا المناخية في الماضي، أو دراسات عن الهجرات البشرية ومجمل القول إن رحابها وجهي الجغرافيا الطبيعية والبشرية لتجعلهما علماً واحداً، موضوعه جغرافيا العصور السابقة، ومن هنا اكتسبت اسم تاريخية.. فيمكن تعريف الجغرافية التاريخية هي دراسة ما كانت عليه جغرافية موضع أو منطقة في فترة من فترات التاريخ.

ثانياً : العلاقة بين الجغرافيا والتاريخ:

تعتبر العلاقة المتبادلة القوية بين الجغرافية التي تمثل علم المكان، والتاريخ الذي يعتبر علم الزمان موضوع قديم جداً، شغل فكر الإنسان منذ أن اهتم بدراسة طبيعة المجتمع البشري على سطح الأرض، والواقع أنه لا يمكن فصل عاملي المكان والزمان عن بعضهما، كذلك لا يمكن الفصل بين الجغرافيا والتاريخ؛ فالتاريخ بغير جغرافيا كما قال بيتر هايلين كالجثة الميتة لا حياة فيها أو حراك على الإطلاق كما أن الجغرافيا بغير التاريخ قد تكون لها حياة أو حركة، ولكنها بغير نظام أو نسق تدور في فلكه، ونزيد على ذلك فنقول أنها كفروع شجرة انفصلت عن أصولها، وقد تبدو كثير من الحقائق الجغرافية في الوقت الحاضر غامضة غير مفهومة، حتى تلقى الضوء عليها من خلال التعرض لتطور التاريخ فتظهر الحقيقية وتبدو لنا صورتها واضحة مفهومة، فدراسة التطور التاريخي وحده هو الذي يجعل الحقائق الجغرافية الراهنة ذات معنى واضح. حيث أن الجغرافيا وهى علم المكان.. بدون الإنسان الذي يعمر هذا المكان لا تعتبر

جغرافيا، لأنه إذا ما أهملنا العنصر البشري لدخلت دراستها فوراً في نطاق العلوم الأخرى

وتستمد الجغرافيا التاريخية مادتها من عدة علوم، فهي ذات صلة وثيقة بفروع الجغرافيا الأخرى خاصة الجيومرفولوجية، والجغرافيا المناخية والجغرافيا الحيوية، إضافة إلى الجغرافيا البشرية بفروعها المختلفة، وتستعين الجغرافيا التاريخية بعلم المناخ القديم ، للتعرف على الأحوال المناخية التي سادت مناطق العالم في العصور المختلفة خاصة عصر البليوستوسين وللجغرافيا التاريخية صلة وثيقة بعلم الآثار بالإنجليزية ، إذ يلجأ دارس الجغرافيا التاريخية إلى الآثار التي خلفها الإنسان، فعن طريق ما خلفته المجتمعات القديمة يتمكن الآثاريون من تجميع الأدلة التي تفيد دارس الجغرافيا التاريخية. ومن العلوم الأخرى علم الأنثروبولوجيا بشقيه الطبيعي والحضاري، وهو يفيد الجغرافيا التاريخية في التعرف على الحضارات المختلفة، وكيفية ملائمتها واستمرارها أو تغييرها. وتهتم الجغرافيا التاريخية باللغويات فعن طريق التحليل اللغوي يتمكن دارس الجغرافيا التاريخية من التعرف على الإنسان في الفترات التاريخية المختلفة، إذ تعد اللغة هي وسيلة للحفاظ على الحضارة ونقلها من جيل إلى آخر. ولا شك أن العلاقة وثيقة بين الجغرافيا التاريخية وعلم التاريخ. والجغرافيا التاريخية ليست أحد فروع الجغرافيا الطبيعية أو الجغرافيا البشرية وإنما هي جغرافية الماضي بجوانبه الطبيعية والبشرية، أي أنها لا تقتصر في دراستها على الظروف الطبيعية للماضي فحسب، وإنما تهتم كذلك بدراسة النشاط البشري. ومجمل القول إن الجغرافيا التاريخية تضم في رحابها فروع الجغرافيا الطبيعية والبشرية.

ثانياً - أهميتها في دراسة التاريخ القديم:

تهدف دراسة الجغرافية التاريخية الى التعرف على اصل الظواهر الجغرافية وكيفية تطورها ودراسة الانسان وفعالياته المختلفة وتفاعلها مع الحيز المكاني، ومع ذلك فقد اختلفت آراء الجغرافيين حول تعريف واضح للجغرافية التاريخية، ففي القرن التاسع عشر كانت تعرف على أنها العلم الذي يدرس تاريخ الكشوف الجغرافية والخرائط ، لكنه يبقى الجغرافية التاريخية علماً وصفيّاً يهتم بالأساس بوصف وتسمية المظاهر الجغرافية، لاسيما وإن الجغرافية خرجت من العباءة الوصفية إلى التحليل الكمي والدراسات التطبيقية.

عرف الأستاذ فوست (١٩٣٢) الجغرافية التاريخية بأنها ذلك الجزء الأساسي من الجغرافيا الذي يتناول دراسة تأثير الحوادث التاريخية على الحقائق الجغرافية، بينما عرفها روكسي (١٩٣٥) بأنها الدراسة التحليلية أو النقدية لتطور الملائمة أو العلاقة بين الإنسان والطبيعة كما تظهر في تاريخ المحلات العمرانية، أو استغلال الأرض، أو العلاقات التجارية والثقافية أو في تطور الوحدات السياسية

والدول والعلاقة بين بعضها والبعض الآخر، ويرى الأستاذ هارتشورن (١٩٣٩) أنها تقوم بشرح توزيع الجماعات البشرية ووصف تكوينها العنصري وتطور هذا التكوين خلال التاريخ، وذلك بالإضافة إلى دراسة النواحي الاقتصادية والسياسية لمنطقة ما خلال فترة تاريخية ما، وبذلك يشير إلى إن جغرافية الحاضر تكتسب عمقاً ومعنى بالرجوع إلى جغرافية الماضي، في حين يرى الجغرافي هالفورد ماكندر الذي يعد مؤسس الجغرافية التاريخية ليس في انكلترا وحسب بل على مستوى العالم أن الجغرافيا التاريخية تقوم أساساً على دراسة الحاضر التاريخي، بينما الجغرافيا التاريخية من وجهة نظر الجغرافي الكبير جلبرت الأستاذ بجامعة أكسفورد تتدرج تحت خمسة مفاهيم على الأقل هي (دراسة تاريخ علم الجغرافيا، دراسة تاريخ الكشوف الجغرافية، دراسة تغيرات

الحدود السياسية بين الدول دراسة تأثير البيئة على مجرى الحوادث التاريخية، دراسة الجغرافيا الإقليمية للماضي).

من خلال ذلك نخلص إلى أن الجغرافيا التاريخية هي جغرافية الماضي، وليست هذه الدراسة هدفاً في حد ذاتها، ولكن الهدف منها التعرض لتطور المكان خلال الزمن، وهذا مما يجعلها تعطى بعداً آخر للمكان وهو البعد الزمني الذي يضيف عليها حركة وحياة، وتعطى الباحث فكرة واضحة عن روح المكان، فلا تصبح الحقول والمحاصيل، أو المدن أو المصانع والمناجم مجرد منشآت يدرس توزيعها وحاصلاتها وعدد سكانها وما إليها، بل تصبح هذه الحقائق الجغرافية أعضاء في كيان واحد تنبض بالحركة باستمرار، وهذا مما لا يجعل الجغرافيا علماً ساكناً، بل تصبح علماً متحركاً (ديناميكياً)، ولابد وأن لهذه الحركة إيقاع محدد، وتأتي أهمية الجغرافية التاريخية من قدرتها على وصف الخصائص الطبيعية في الماضي، وبيان دور العامل البشري فيها وتحليلها ضمن إطارها المكاني من أجل أن تكون الدراسة ذات جدوى.

ثالثاً : موقع الجغرافية التاريخية من فروع الجغرافية الأخرى:

أن معظم الباحثين يميلون إلى اعتبار الجغرافيا التاريخية جزءاً من الجغرافيا البشرية في مظهرها التطوري، ولكن ربما يكون ذلك قصور في الفهم، فكما أن هناك جغرافية تاريخية بشرية هناك جغرافية تاريخية طبيعية، إذ تتميز الجغرافية عن بقية العلوم بكونها علم واسع متعدد الاقسام والفروع بحكم اهتمامه بدراسة الأرض وما على سطحها، من مظاهر طبيعية وبشرية (حضارية) لذا تعد علماً واحداً له مظهران طبيعي وبشري، مما ساهم بتشعب دراستها وتنوعها.

وقد عمد الجغرافيون إلى تقسيم علمهم إلى قسمين رئيسيين، لتسهيل البحث المنهجي هما الجغرافيا البشرية والجغرافيا الطبيعية ويعرف كلاهما بالجانب العام أو الأصولي،

أما شخصية المكان الواحد فهو موضوع الجغرافية الإقليمية وهو ما يعرف بالجانب الخاص، والتي يعدها البعض قسماً آخر من أقسام الجغرافية، أما الجغرافيا التاريخية فهي علم واحد موضوعه جغرافية العصور السابقة، وعلى الرغم من تعرضها لدراسة الجوانب الطبيعية والبشرية وفق البعد الزمني والمكاني، إلا أنه لا يمكن إدراجها ضمن أي من أقسام الجغرافية - السابقة الذكر - لذا جاءت الجغرافية التاريخية لتشكل قسماً مستقلاً، ومهما استمدت موضوعاتها من قسمي الجغرافية فهي بذلك تكون اختصاصات وفروع جديدة تابعة لها، فتشعبت بدورها واتسعت مما أدى إلى تعدد مفاهيمها، كدراسة في الجغرافية التاريخية للمناخ القديم، أو الجغرافية التاريخية للموارد المائية، أو دراسة أشكال الأرض المختلفة في الأزمنة والعصور الجيولوجية المختلفة وهي بذلك ترتبط بالجغرافية الطبيعية، أما ارتباطها بالجغرافية البشرية يولد فروعاً مثل دراسة في الجغرافية التاريخية الاقتصادية الأنشطة الزراعية والصناعية والتجارية، أو دراسة التغيرات في الحدود السياسية لفهم المشاكل السياسية الراهنة وتعد جغرافية تاريخية سياسية، أو دراسة الجغرافية التاريخية للمدن عند دراسة الوظيفة السكنية أو التركيب الداخلي للمدن وغيرها .